

على هامشه النقد

الاتجاهات الحديثة

في الشعر العربي

للاستاذ سيد قطب

تمهيد: حضرات الأساتذة والإخوان (١).

جئت الليلة لأحدثكم عن الاتجاهات الحديثة في الشعر العربي ، وستسمعون مني كثيراً مما يخالف آراء الكثير منكم وهذا — وحده — هو الذي يشجعني على أن أبذل من وقتي وأشغل من وقتكم ساعة وبعض ساعة ، فلو أنني جئت لأحدثكم بما يوافق آراءكم ورغباتكم لكان ما سأشغلكم به تكراراً لا معنى له . وأنا ممن يؤمنون إيماناً جازماً بأن أعمارنا القصيرة ، وساعاتنا المحدودة في هذه الحياة العاصلة أقصر وأثمن من أن تضيع في التكرار ، وكل مطلع شمس لا يغذيني بجديد ، ويعوضني عن اليوم الفائت من عمري عمقا وسعة في فهم الحياة هو خسارة لا تعوض .

على هامش النقد : وقد أسميت حديثي معكم الليلة « على هامش النقد » لأنني أشفق أن أسميه نقداً وأستكثر على نفسي لقب « الناقد » في مثل هذا البحث الخاطف ، فالنقد في هذه الأيام لم يعد سهلاً معبد الطريق كما كان في الأزمان الخالية ، يوم كان يكفي للنقد الأدبي تجويد اللغة نحواً وصرفاً ، والاطلاع على مآثور الشعر والنثر ، وحفظ الروايات والأسانيد . . . وما إلى ذلك من أدوات اللغة والبيان .

(١) هذا نص المحاضرة التي ألقاها الأستاذ بالنادي مساء الخميس ١٠ أبريل سنة ١٩٤١

أجل لم تعد هذه الأدوات كافية للناقد الأدبي في هذا الزمان ، بل لم تعد كافية لمتذوق الأدب الذي لا يتصدى للنقد ؛ لأن ميادين المعرفة قد اتسعت ، وشراطينها قد انفسحت ، ولأن ألوان الثقافة قد تعددت ، وروافدها قد كثرت ، وبات الأديب نائراً كان أم شاعراً - إنساناً مثقفاً تصب روافد المعرفة في نفسه ، فتتضح على أدبه ، وأصبحت اللغة والألفاظ والأساليب وصور البيان نعض أدواته لا كلها ، وبعضها الأسهل الأرخص السطحي ، لا بعضها الأصعب الأنفس العميق .

وإذا كان هذا شأن الأديب المنتج ، فشأن الناقد لا يقل عنه إن لم يزد ، وأنا لا أبيع لنفسي أن أتصدى لنقد أديب ليست لدى أمثال وسائله من المعرفة كافة والثقافة عامة ، ولو في الموضوع الذي أتصدى لنقده وحده . وإلا كنت منتجا وكنت ظالماً لنفسي قبل أن أكون ظالماً للأديب المنقود . وإنني لأستطيع أن أسرد لكم صفا طويلاً من ألوان العلوم والمعارف التي أصبحت اليوم لازمة للأديب الذي يريد لأدبه الحياة ، والتي لا بد منها للناقد بطبيعة الحال . وليس عجيباً بعد ما بلوت النقد لبعض إنتاج الأدباء والشعراء في هذه الأيام أن أقول لكم : إن من أدوات الناقد الصحيح علوماً ومعارف لم تكن لها صلة بالأدب - ولا سيما الأدب العربي - قبل هذا الزمان . . . فهل تصدقون أنني كنت أجد في دراساتي لعلم النفس الحديث أداة ألزم لي في نقد الشعر من جميع أدوات اللغة والبيان ؟ وهل تصدقون أن علم الأحياء وبعض نظريات بناء الكون الجديدة ونظريات الإشعاع والمادة وما إليها كانت تجدي علي في توسعة آفاق الإنتاج الأدبي وآفاق النقد الفني أضعاف ما أجدت على دراساتي الأدبية البحتة في القديم والجديد ؟ . أولاً ترون معي أن الدراسة المتعلقة بنشأة الكون والأحياء ثم دراسة طبيعة هؤلاء الأحياء وما إلى ذلك جديرة بتوسعة النفس وتعميق الأحساس ؟ وأنك حين

تدرس مذهبا في تسلسل الأحياء كذهب دارون مثلا وتحس بالقرباة بينك وبين كل حي على سطح هذه الأرض ، وتشعر أنك لست مفردا فيها بجنسك الإنساني ، وأن هناك وشائج حية بينك وبين الطير السابح في الجوار ، والسمك السارح في الأعماق بل بينك وبين النمل وما هو أخفى من النمل ، يتفتح قلبك عن أحاسيس ومعان لا تخطر على نفسك وأنت جاهل لمثل هذا المذهب في الأحياء .

وأنت حين تدرك مثلا أن ذرات المادة إن هي إلا إشعاع كهربى مندمج وأن الذرة المتكثلة هي نوع من الكهرباء في صورة من الصور وأن جسمك كله ما هو إلا أشعة كهربائية في شكل من أشكالها . حين تحس بذلك ألا تتسع آفاق الاحساس بالكون ويزخر شعرك بوصف هذه الآفاق الجديدة ؟ والأدب عامة - والشعر خاصة - تعبير جميل عن إحساس صادق - وإذا فقد الركن الأول فقد تعد شيئا كثيرا ، أما إذا فقد الركن الثاني فقد كل شيء ، ولم يعد شعراً أصلاً . والتعبير الجميل في حاجة إلى الذوق وإلى الدراسات اللغوية والأدبية ، والاحساس الصادق في حاجة إلى سجية موهوبة لا يغنى المران شيئا في خلقها ، وإلى تغذية هذه السجية وإطلاعها على الآفاق الواسعة من مجالى الكون والطبيعة فى الفنون والعلوم والفلسفات . والناقد يحتاج إذن بجانب دراساته اللغوية والأدبية إلى ذوق سليم ثم إلى دراسات علم النفس بأوسع معانيها وسيظل نقده ناقصاً أو زائفا - وهو يدرس تعبيراً عن إحساس - ما لم يكن بصيراً بالنفس فى تقلباتها وأطوارها ، لأن التعبير إنما هو صورة الإحساس . والإحساس حالة نفسية ، فلا بد من دراستها على هدى الدراسات النفسية .

وكذلك قد يحتاج الناقد إلى الدراسات العلمية البحتة والدراسات العقلية المتنوعة التى تكون الروافد والجداول فى هذا العصر للمعرفة الإنسانية ، وقد ظهر إشعاع

النظريات العلمية والفلسفية في الأدب، لأن النفس الإنسانية محوطة بهذه النظريات من كل جانب في العصر الحديث فلا بد أن تتأثر بها، ولا بد أن يظهر هذا التأثير في إنتاجها ومتى ظهر في الإنتاج الأدبي كان ناقدها هذا الإنتاج في حاجة إلى ثقافة واسعة، وإلا وقف قاصرا عن الفهم قاصرا عن الحكم.

ولست أعني بتأثر الشعر بالمذاهب الفلسفية والعلمية، أن ينظم الشاعر حقائق هذه الفلسفات والعلوم شعرا، إنما أعني أثر هذه الثقافات في توسيع آفاق المعرفة وتوسيع آفاق الإحساس بالكون والحياة وآفاق الشعور بنوع الصلة بين الشاعر والكون.

على أن امتزاج الثقافات العقلية بالأدب ليس شيئا جديدا، وإنما الجديد هو الالتفات إليه وتقديره حق قدره. وإلا فقد كانت النهضة العلمية والفلسفية في العصر العباسي ظاهرة الاثر في إنتاج الأدباء في ذلك الزمان. ولست أستثنى من هذا التأثير دواوين الشعراء، فالمذاهب الفلسفية من معتزلة وشيعة وصوفية وسواها وجدت طريقها إلى شعر الشعراء، وكذلك وضحت في الشعر تأثيرات دراسة الفلك والهندسة والكيمياء، وانبثت أسماء المخترعات الحديثة والمناظر والأدوات والأشياء. غير أن هذا كله كان في الشعر العربي واضحا بشخصه ورسمه لم يهضمه ولم يصبح جزءا غامضا من كيانه لأنه كان جديدا على حس الأعراب لم تمثله نفوسهم ولم يرسب في أعماق شعورهم. أما النظريات الفلسفية والمذاهب العلمية في هذا الزمان فهي قطعة من الحياة الفكرية والنفسية للأديب الحديث، تطبع آثارها فيه من وراء ستار، وتحتاج في نقدها إلى ناقد مثقف صارت الثقافة جزءا من تكوينه النفسي والعقلي.

والنتيجة المحتومة لهذه المقدمة، أن أولئك الذين تتكون ثقافتهم من اللغة والأدب البحت ليسوا أكفاء للنقد في هذا الزمان، ولا يحق لهم أن يتصدوا

لهذه المهمة إلا في تواضع وحذر، وفي بعض إنتاج الأدباء دون البعض الآخر، لأنهم لم يستوفوا جميع أدوات الناقد الحديث. وعليهم أن يفتشوا في ثقافتهم ويعيدوا اختبار قدرتها على الحياة في هذا العصر، ثم يكملوا هذه الثقافات بكل جديد، وكلما بعد هذا الجديد الذي يكملون به ثقافتهم عن اللغة وعن الأدب البحث، كان أعود عليهم بالنفع وأجدي في استكمال أدواتهم للتذوق والنقد. وعلى سبيل المثال أذكر أن شاعرا كبيرا قال قصيدة سماها «سحر الطير» جاء فيها:

كل إلف له من الطير إلف	هكذا تجمل الحياة وتصفو
أمل يرتقى وحب يناجي	ولسان يشدو وقلب يرف
بك خف الجناح بأياها الطير	وما كنت بالجناح تخف
لطف روح أعار جنديك ريشا	فمن الروح لا من الريش لطف
ليس ينميك للسماء جناح	بل غناء عن الضياء يشف
إن مضى الناس يعجبون قديما	كيف تعلو عجببت كيف تسف
ثقلة في الحياة لم ينبج طبع	من عراقيلها ولم ينبج عرف

قال الشاعر هذه القصيدة معتمدا على طبيعة إحساسه بقوى الحياة الكامنة التي تصرف المواد وتحركها، وعلى يقينه اللدني بأن في طبيعة الحياة ميلا كامنا إلى التسامي والطلاقة والتحرر من قيود الضرورة وثقلة المادة. ومعتمدا على ثقافته في علم وظائف الأعضاء الذي يساعف هذا اليقين ويؤيده حين يقرر أن «الوظيفة تخلق العضو» فوظيفة الطير في الطائر هي التي تخلق الجناح، ووظيفة الابصار في الإنسان هي التي تخلق العين، وليس الجناح هو الذي يخلق الطيران ولا العين هي التي تخلق الإبصار. وإنما هما أداتان متغيرتان لوظيفيتين ثابتتين من وظائف الحياة.

ولكن ناقدنا من أساتذتنا الفضلاء جعل يتهمكم ويتندر على هذه الأبيات وعلى

القول بأن لطف الروح هو الذى أعار هذا الطير ريش الجناح . وجرعة علمية واحدة من العلوم الحديثة كانت كافية لصحة الحكم فى هذا الموضوع .

أسس النقد الجريئة : لم يعد أساس النقد فى الشعر الحديث أن هذا مما

تقول به العرب أولا تقول . فالأديب : إنسان أولا ، ثم هو ينطق باللغة العربية ثانيا . فالأساس الأول للنقد أن تسأل هكذا : آلا إنسان يقول هذا أم لا يقول ثم : أهذا الذى يعبر به صحيح أم غير صحيح من ناحية تصريح اللغة وتركيبها ؟ وهنا مفرق الطريق بين المدرسة الحديثة والمدرسة القديمة فى هذه الأيام وقد كان فى كل عصر مدرستان حتى فى صدر الإسلام وعصر بنى العباس ، لأن الأدب واللغة فى نمو دائم ، وتجدد مستمر ، ولا بد من المجددين والمحافظين فى كل زمان ومكان .

تقف المدرسة القديمة اليوم بطرق التعبير عند نهضة اللغة فى العصر العباسى وتسقط من حسابها ألف سنة كاملة مرت على اللغة بعد هذا التاريخ ، كما تسقط من حسابها شيئا أهم من الزمن وهو الفروق التى لا جدال فيها بين جنسية الناطقين باللغة العربية فى الممالك المختلفة ، ويميزانهم العقلية والنفسية ، التى لا بد أن تترك أثرها فى طريقة التعبير أى فى الأسلوب .

وترى المدرسة الحديثة أن اختلاف الأساليب بين أمة وأمة من الناطقين باللغة الواحدة ضرورة عقلية لا فكاك منها ، فطريقة الإدراك والتفكير ليست واحدة بين الجميع ، وترتيب الألفاظ فى الجملة ، ثم ترتيب الجمل فى النص الأدبى صورة من ترتيب خطوات الإدراك وخطوات التفكير عند الناطق بها . فتبعاً لهذا تختلف طريقة ترتيب الألفاظ فى الجملة وطريقة ترتيب الجمل فى النص فى أمة عن أمة . فطريقة ترتيب الألفاظ فى اللغة الانجليزية مثلاً وطريقة ترتيب الجمل فى الأسلوب مغايرتان لما فى اللغة العربية ، وهذه المغايرة

تحتّمها طبيعة العقلية الانجليزية قبل أن يحتّمها اصطلاح اللغة وما اصطلاح اللغة إلا صورة من هذه العقلية غير مستقلة عنها .

ونحن نتكلم اللغة العربية الناشئة في بطون الجزيرة ونجاد الصحراء وهي صورة لعقلية العرب البادين في الجاهلية ثم صورة لعقلية العرب المتحضرين أيام الدولة العباسية ، ولكن عقليتنا نحن المصريين في القرن العشرين لا بد مختلفة كثيرا أو قليلا عن هذه العقلية وتلك ، فلا بد إذا أردنا من هذه اللغة العربية أن تساعفنا في التعبير عن إحساساتنا وأفكارنا الجديدة أن نغير في أدواتها تغييرا يناسبنا ، وإلا أصبحت غريبة عنا ونحن عنها غرباء .

غير أن هذا التغيير يجب أن تكون له حدود . والحدود التي نرتضيها نحن شبان المدرسة الحديثة هي صحة التصريف اللغوي ، وصحة التركيب النحوي ، وصحة ترتيب الألفاظ في الجملة ولا شيء وراء ذلك . ونحن نحس بحاجة في شعرنا خاصة إلى الحرية في ترتيب الجمل في النص إلى حد ما - وإلى الحرية المطلقة في تصوير الاتخيلة والاحاسيس الإنسانية ، ولو لم يكن هذا التصوير من المتعارف في اللغة العربية كلها ، ولا في نص أدبي واحد من نصوصها .

حين يقول الشاعر الشاب أحمد مخيمر (من شعراء دار العلوم) قطعة بعنوان « فاكهة النور » .

يا حسن هذا النور يا حسنه	فاكهة تلمع لمع الظنون
تستنسم الروح لها نكهة	كنكهة الشوق وريا الحنين
ناعمة الملمس مثل الشذا	أو ورقات الفل والياسمين
وحلوة اللمع كلبح المنى	إذا سرت في خاطر الياسمين
يا حسن هذا النور يا حسنه	فاكهة رفاقة في الغصون
ياكلها الحس وتهفو لها	بالنهم الروحى روح الحزين

حين يقول الشاعر الشاب هكذا لا يجوز أن يفغر أناس أفواههم عجباً

واستنكارا ، لأن العرب لم تشبه النور على الغصون بالفاكهة ، ولم تقل : إن هذه الفاكهة نكهة الشوق ، لأن الشوق لانهكة له ولم تقل : إن هذه الفاكهة ناعمة الملمس لأن النور لاملس له إلى آخر هذه التحليلات اللفظية والذهنية .

لا يقل أحد هذا ، وليكن ليقل : آ لإحساس بالنور على هذا النحو إحساس صحيح صادق ؟ أيجوز أن يستشعر الشاعر للنور ما يستشعره للفاكهة في الغصن من روح وريّا ؟ أيجوز أن يتخيله ناعم الملمس ؟ أو لا تخيل العين للعقل ملمس ماتراه ؟ ألا يلح النور للخاطر كلمح المنى والآمال ؟ والجواب على كل هذه الأسئلة بالإيجاب ، والتعبير بألفاظ عربية لاشك فيها صحيحة لغويا ، وتراكيب عربية لاشك فيها صحيحة نحويا ، وترتيب التراكيب في الأبيات ترتيب عربي لاشك فيه صحيح بيانيا ... وهذا يكفي ... أما أن العرب قالت هكذا أو لم تقل . فليس الشاعر ملزما بنقل صور الإحساس العربية وإلا فقد شخصيته وخان إحساسه .

المتمم في الأساليب : لقد وجد في العصر القديم من يعيب على المتنبي قوله : وضائق الأرض حتى ظل هاربها إذا رأى غير شيء ظنه رجلا وحسبوه ضرورة من ضرورات النظم ألجى . إليها ، أو فلتة من فلتات أبي الطيب الكثيرة . لأن « غير شيء » لا يرى . وهذا تحليل ذهني ولفظي يقف عند ظواهر التعبير ، فلا يستسيغ مافيه من حقيقة وجمال . ونحن اليوم نعجب بمثل هذا الأسلوب ، فهو فوق إبداعه الفني في تصوير الخائف الوجل ، صادق من وجهة الدراسة النفسية . فالهارب الخائف يتوهم أشباحا ويراهها . وهي « غير شيء » في الواقع الخارجي ، بينما هي « شيء » في خياله وروحه .

كذلك وجد في العصر الحديث مع يعيب على شاعر من شعراء الشباب قوله من قصيدة:

غنية أنت بالتعبير قد ذخرت أطواء نفسك منه زاد أحقاب
وهبتني منه أشتاتا متنوعة وزدتني منه في جود وإسهاب
في كل جراحة عنوان ملجمة من الحديث وسر جد جذاب
تقص تاريخها في فن راوية منسق النبرذى لحن وإطراب
وإن تاريخها أقصوصة جمعت تجارب الكون في أحلام أرباب

العين . ماذا تقص العين من خبر مسلسل في حنايا النفس منساب
والشعر ماذا يبث الشعر من غزل في صمته العذب أوفى نطقه السابي
وإن فيه لقبلات قد ارتسمت من بعد ما نضجت للاثم الصابي!
وقال قوم : كيف تذخر نفس هذه المخلوقة زاد أحقاب من التعبير؟ وكيف
تكون الجوارح عنوانا لملاحم من الحديث؟ وكيف ترسم القبلات فوق
الثغور لأعين اللاثمين؟ وما هذا الغزل الذي لا يذكر فيه الجمال والهيام؟
وفي اعتقادي أن الأجيال والتجارب الإنسانية والرواسب الوجدانية في
أعماق النفوس تذهب كلها ضياعا، لو لم يوجد شعراء يقرءون في نفوس
محبوباتهم ومن صامتات أحاديث طويلة وتعبيرات عميقة؛ ويرون في كل
جراحة من جوارحهن عنوان قصة طويلة من الحب والحنين والأشواق الكامنة
والتمنيات السعيدة والآمال السابحة في المستقبل المرموق بين الحبيبين ويرون
في الشفاه تهيؤا يهتف بالقبل حتى لكانها مرتسمة على هذه الشفاه تدعو من
يقطفها أن يبادر إذ هي ناضجة مهيأة للقطاف!

ومن هذا الوادي كل الأساليب الجديدة التي تقول عنها المدرسة القديمة:
إنها تعبيرات أفرنجية لا تعرفها الأخيلة والأساليب العربية.
ولعل من غريب المصادفات أن يكون أكثر من يستخدمون هذه

التعبيرات والتصورات هم من أبناء دار العلوم الذين لم يحذقوا لغة أجنبية .
ولكن طبائعهم الخاصة وإحساسهم القوى بالحياة العصرية في نفوسهم ،
وإخلاصهم للصدق في التعبير عن حقيقة مشاعرهم هو الذي ينطق ألسنتهم
بهذه التعبيرات ، لأنها أدل على مايجول في خواطرهم من أحاسيس وتصورات .
على أن الأساليب العربية في القديم لم تقف عند لون واحد ، بل تنوعت
تنوعا يناسب تطور الناطقين بها يوم ذاك . وكل ما هنالك أن النهضة الأدبية
الحديثة في مصر لها خصائص ومميزات تستدعي تنوعا أكثر وتعددا أوضح
مما حدث في أيام العصر العباسي الذي يجب أن نعد النهضة فيه نهضة متواضعة
بالقياس الى نهضتنا الجديدة .

معالم الخريف الحقيقية بين المدرستين : الى هنا أحسبني أوضحت معالم

الخلاف بين المدرستين في اللغة والتعبير والأساليب .

وهنا أحب أن أنبه إلى أن بعض الشبان ممن ينتسبون إلى التجديد لم يفهموا
رسالة المدرسة الحديثة على حقيقتها ، فحسبوا أن كل مانع فيه هو هذه الأساليب
الجديدة في التعبير ، وبالعوائق هذا الحسبان وفتنهم زخرف التشبيهات وتراقص
الصور ، وغرابة الأخيلة ، وما هي إلا أثواب موشاة على أجساد ميتة أو
مصنوعة لا تنبض فيها الحياة . وكان لهؤلاء مدرسة خاصة منذ سنوات تعبر
عنها مجلة خاصة ، ولكن لحسن حظ النهضة الأدبية أن انزوت هذه المجلة
وفطن الأدباء الجديرون بهذا الاسم إلى زيف صناعة التعبيرات المبرقة . وإني
لأخشى أن يكون هؤلاء الشبان أحوج إلى محاضرة في شرح المذهب الحديث
من أولئك الذين نصمهم بالرجعة والجمود .

إن الفروق الحقيقية بين المدرستين الآن هي الخاصة بالاتجاهات النفسية
والعقلية ، وهي التي تسبب اختلاف الأساليب .

وأول ما يختلف عليه المدرستان « طبيعة الشاعر » أهو إنسان كبقية الأناسي وهبته الحياة أو وهبه المران القدرة على التعبير الجميل ، أم هو إنسان ممتاز ذو نفس خاصة وهبته الحياة مع القدرة على التعبير الجميل طبيعة خاصة مزودة بالإحساس الصادق بل بالإحساس الخاص بل بالإحساس الممتاز .

أما المدرسة القديمة فلا ترى في الشاعر سوى مقدرة التصوير البارع عما يحسه غيره ولا يستطيع التعبير عنه . وإذا زادت فتطلبت فيه حسا مرهفا أو ذوقا جميلا . فهي لا تتطلب ولا تعرف كيف تتطلب فيه نفسا خاصة متميزة بطريقة إحساس خاصة ، وهي بطبيعة الحال لا ترتقي إلى أن تكون هذه الخصوصية امتيازاً يرفعه فوق الآخرين . فنفسه واحدة من النفوس الكثيرة المكرورة تتميز بأسلوبها وطريققتها لا بلونها وطبيعتها .

أما المدرسة الحديثة فرأيها أن الشاعر إنسان ذو طبيعة خاصة — وتلك أولى مراتب الشاعرية — ثم هو ذو طبيعة ممتازة في ناحية أو في عدة نواح بحسب نصيبه من الشاعرية . وقد قصدت الحياة من هذه الطبيعة إلى إبراز طراز عزيز عليها لا يوجد في كل يوم ، فالشاعر يصور آمالها وآلامها ، ويسجل أحداثها ووقائعها ، ويرسم تطوراتها وحالاتها ، ويلتقط لوحات الكون ولوحات الحوادث بعدستها الخاصة ، فإذا نحن في عالم من خلقه وإنشائه . عالم جديد غير العوالم التي عهدناها في أنفسنا وفي سوانا . عالم يضاف إلى عوالم الفنانين الآخرين فيزيد الكون سعة في إحساسنا ، وغنى في ضمائرنا . وبذلك يؤدي نصيبه في تجميل الحياة وتعميقها وتعظيمها .

فالبحر الذي يصفه لنا ذلك الشاعر ليس هو البحر الذي نراه كل يوم والذي رآه غيره من قبل ، ولكنه « بحره » الخاص الذي خلقه هو على غير مثال من بحار الفنانين الآخرين !

والشمس التي تبعث بالضياء إلى كل مذهب ودب على وجه الأرض تطلع

عليه بوجه خاص مذكور له وحده لا يراه الآخرون . . .
ومن هنا تسقط تلك الخرافة القديمة القائلة : إن المعاني ملقاة على قارعة
الطريق يختار من شاء منها ما يشاء . فتملك المعاني الملقاة على قارعة الطريق هي
المعاني التي لا يحفل الشعر بها ، فيثخنها إلى المعاني الخاصة الرفيعة ، وهو يتفرد
في حقيقة الإحساس بها ، لا في ضرورة التعبير عنها . . .
يقرأ القارئون إنتاج الشاعر من المدرسة القديمة وهم يقولون : وى كائننا
كنا نريد أن نقول هذا ولا نستطيع ! فتكون هذه خير مواهبه ، وهي أرخص
مواهب الفنانين !

ولن نقول أحد مثل هذه القولة وهو يقرأ للعقاد عن البحر :
في ساحل البحر لنا غربة عن عالم الرجس ودار الخواب
يشدو لنا البحر كما قد شدا من قبل أن توهل هذه الشعاب

فك قيود العمر سلطانه وراجع الشيب عليه الشباب
لعل ميلادا لهم عنده أنساهم ميلادهم في التراب
كأنما تعرى نفوس الورى في الماء عن أجسادها والشباب
فخلق العمر كمنوشيه ومالك الارض كخاوى الوطاب
إلى آخر القصيدة ذلك أن البحر هنا ليس مياهها وأمواجها وزرقة
كزرقة السماء مما تراه كل عين وتسمعه كل أذن من هذه المحفوظات . . . إنما هو
مغترَبٌ لرواده عن عالم الرجس ودار الخراب ، وهو يشدو شدوه الخالد الذى
رتله من قبل أن توهل هذى الشعاب . ولعل السابحين في غماره إنما يحسون
بالقوة والنشوة لأنهم ينسون مولدهم الارضى ويدكرون مولدهم القديم
عند هذا البحر يوم ولد البحر الحياة في مجاهل الزمن الأولى ، وكأنما تعرى
نفوسهم عنده لا من الشباب وحدها بل من الأجساد أيضا فمن هنا خفتها

ونشوتها وشعورها وهي في لجة الصخب بأنها أرواح مطلقة غير مقيدة بالمظاهر والأشكال الدنيوية .

وهكذا تجدى نفسك من هذا البحر صورة جديدة غير بحار الناس ، ويسبح الشاعر بخيالك إلى مجاهل التاريخ يوم كان البحر يغمر البسيطة ويوم لم تؤهل شعابها المجهولة ، ثم يخلع الحياة على هذا البحر الصخب فإذا هو مجرد الأنفس من أجسادها ويبتث القوة في أوصالها ويشيع الفتوة في إحساسها فيفك سلطانه قيود العمر ويرجع الشيب إلى الشباب .

وكل هذه معان وأحاسيس ليست ملقاة على قارعة الطريق ولا على « البلاج » ، وفضل الشاعر فيها ليس فضل التصوير بالتعبير ، ولكنه فضل الخلق والإيجاد في الضمير .

ويقول محمد علي (الشاعر المجهول وهو أولى من جميع شعراء النهضة الشبان بالالتحاق والظهور وهو أحد أبناء دار العلوم) في ديوانه « تيه الحياة » من قصيدة سماها « إلى الضياء » .

فتحت ذراعى للضياء جميعه	كما يفتح الصب الذراع الوامق
تقابل فيض من سماء طروبه	بفيض زخور من حنبنى دافق
فلولا قيود الجسم أرزح تحتها	وأقفاص صدر فى واهى الدلائق
لما زجت من أضوائه كل هائم	وخالطت من أنسامه كل خافق
وعانق كل نور نور بخاطرى	فشمل فى تهويمه المتعاق
ونفى فنا الفرد فى الله لا ترى	هنالك فرقا بين خلق وخالق

فالضياء يملأ الكون وتراه كل عين . ولكن « محمد علي » وحده هو الذى يتجه إليه هذا الاتجاه ويستقبله هذا الاستقبال ، لأن بنفسه من الحنين وبحسه من الأضواء ما يكافى . هذا الضياء المنتشر فى الأكوان ، وذلك حس جديد بالحياة والطبيعة تسجله هذه الآيات .

ويقول شوقي عن الربيع .

مرحبا بالربيع في ريعانه وبأنواره وطيّب زمانه
زفت الأرض في مواكب آذا روشب الزمان في مهرجانه
زل السهل ضاحك البشر يمشى فيه مشى الأمير في بستانه
عاد حلياً براحتيه ووشيا طول أنهاره وعرض جنانه
فترى تعبيرا جميلا وطريقة خاصة في الأداء ، ولكنك لا تلمح إحساسا
خاصا بالربيع على نحو لا يشارك شوقيا فيه مشارك ، فلم يقل شوقي إن الربيع
ضاحك ولا أنه يمشى مشى الأمير أى مختالا ، حتى قال البحترى قبله :
اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد ان يتكلما
وقد نبه النيروز في غسق الدجى اوائل ورد كن بالأمس نوّما
يفتفها برد الندى فكأنه يبت حديثا كان قبل مكتما
فمن شجر ردّ الربيع لباسه عليه كما نشرت وشيا منمنما
ورق نسيم الريح حتى حسبته يحىء بانفاس الأحبة نعا
مع الفارق الكبير بين ذلك الفيض الزاخر في قول البحترى ، والطلاقة
الناضة التي تخيل لك هذا الربيع بنية حية متوفرة تكاد تنطق بما فيها من فيض
القوة والتفتح والبشر ، وبين تلك التشبيهات والاستعارات في قول شوقي :
إن الربيع كالأمير وقد نزل يمشى في بستانه . ولا ندرى من أين نزل . إذ أن
الربيع ينبض من الضمير والاعماق في نفوس الأحياء من إنسان وطير
وحوان ونبات ، ويتفتح في الإحساس أشواقا مجهولة وحنينا طائرا وبهجة
متطلعة قبل أن يتفتح في الطبيعة أزهارا وورودا أو كما يقول شوقي حلياً
ووشيا .

إنما أنت واجد هذا الربيع في قصيدة « العوضى الوكيل » أحد شعراء
الشباب من دار العلوم .

قد ابتسم الجمال بكل روض وأسرعت الطيور إلى الهتاف
صحت في الروح أعصنه نضارا كما تستيقظ الذكر الغوافي
حياة في المتالع والروابي وأنس يطبك بلا اعتساف
أكاد أريق نشوته بصدرى وأعصر منه أكواب السلاف
أتلک الزهرة الحسناء لحن تردد بين يقظان وغاف
أذاك الجدول النعسان روض مطالعه تفتح عن قواف
وتلك النفس أم ملاً عديد تواكب في الأضالع والشغاف
تكاثرت النفوس بكل نفس نوازع من صرن إلى اختلاط
نهضن إلى الحياة وهن شتى بنظرة وامق وبشوق واف
... إلى آخر القصيدة ، فتلمح فورة الربيع في الضمائر والنفوس التي تواكب
في الأضالع والشغاف وكأن كل نفس لشدة ما تفتحت أحاسيسها وتطلعت
إلى الجمال النابض في كل مجال الطبيعة نفوس كثيرة لكل منها أشراق مختلفة
وذلك ربيع العوضى الوكيل لاربيع الجميع الملقى على قارعة الطريق !
ونخلص من هذا كله إلى أن نظرة النقد الحديث تتجه أولاً إلى السؤال
الآتى : هل هذا الشاعر ذو طبيعة فنية خاصة ؟ ، ثم هل هذه الطبيعة الخاصة
طبيعة ممتازة ، وعلى قدر توافر هاتين الصفتين يكون الحكم على شاعريته ، أما
التعبير الجميل والأسلوب الرائع والجرس الموسيقى ... إلى آخر أوصاف
التعبير الجيد فتأتى في المرحلة الثانية ، ولا تنهض وحدها بخلق الشاعر بله
الشاعر الكبير .

وتختلف المدرستان بعد هذا على « وظيفة الشاعر » فالمدرسة القديمة
تخلط بين وظيفته ووظيفة المؤرخ تارة ، وبين وظيفته ووظيفة الداعى الاجتماعى
أو الأخلاقى أو الوطنى تارة فتطالب منه حينئذ أن يقوم على تسجيل أحداث

عصره وواقعات زمانه، والخوض فيما يخوض فيه عامة الناس والاشتغال بما يشتغلون به من شئون، أو تطلب منه أن يكون الهاتف لشعبه بالدعوات الاجتماعية والخلقية أو النعرات الوطنية والقومية.

فإن فعل هذا فهو شاعر، كيفما كان إحساسه بما يهتف به، وكيفما كانت طريقته في أدائه، مادام الأسلوب رائعا والألفاظ منتقاة والموسيقى واضحة في مقطوعاته. ومن هنا كان شوقي وكان حافظ عند هذه المدرسة هما شاعرا العصر الحديث!

وإن لم يفعل فما هو بشاعر وما أدى وظيفته للفن أو للأمة لأن جيله لم « ينتفع » به. كأن « المنفعة » القرية العاجلة المباشرة هي أسمى آفاق الفنون! وهذه النظرة هي بقية من النظرة إلى شعراء القبيلة الذين كانوا يعيرون عن خواطرها وينطقون بلسانها ويزودون عن حياضها، ويبلورون أحاسيسها الساذجة المشتركة بين الجميع.

أما المدرسة الحديثة فتحسب حسابا لتطور الزمن، وانتهاء عهد القبلة، ووضوح السمات بين الأفراد. وتطلب الخصوصيات في الأنفس والمشاعر والعقول. فتعنى الشاعر من هذه القيود، وترتفع به عن مستوى الحوادث اليومية ما لم ير فيها رأيا خاصا ويشعر بها شعورا ممتازا، وهي تطلقه حرا يشايع إحساسه الخاص ويعبر عن وجداناته الذاتية؛ وسواء عليه أن يحس بما يخالج الجماهير ويعيش في دنياهم، أو يبقى في صومعة يغرد لنفسه ويردد مشاعرها الذاتية، كما يما يحيا وحده في هذا الكون الرحيب.

ونفس الفنان الخاصة المميزة عن غيرها من النفوس الشائعة وشخصيته المتفردة التي تسم كل أعماله بمسماها هي أعز مواهب الفنان في تقدير هذه المدرسة وما دام الشاعر صاحب شخصية لا تخفى بين الشخصيات الكثيرة ولا تندغم في غمار الجماهير أو غمار الشعراء الآخرين، وما دام يسجل لنا

خواطر هذه الشخصية في أي واد من وديان الإحساس ، وبأية طريقة من الطرق الذاتية ، فهو شاعر أدى وظيفته كاملة ، سواء هتف بآمال قومه وآلامهم أم غنى للكواكب والنجوم بين الزعازع والأعاصير !

ومن هنا كان شوقي وكان حافظ في عرف هذه المدرسة شاعري جيلهما وحده ، وكانا حلقة لها قيمتها في سلسلة النهضة الأدبية ، ولكنها حلقات أوانها ، ولم تعد تسد مسد الحلقة الحاضرة ، ثم هي لا تقاس بحلقات النهضة القديمة كما في العصر العباسي مثلاً فلقد كانت الطبائع الفنية هناك متميزة تميزاً كافياً لبقائها حتى هذه اللحظة وحتى الغد البعيد حية مرموقة . فأبو تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي والمعري وأمثالهم أصحاب طبائع خاصة ممتازة تكفل لهم الدوام ، وليس كذلك شوقي ولا حافظ ولا البارودي ولا اسماعيل صبري ولا البكري ولا ولي الدين يكن من شعراء الجيل الماضي في النهضة الحديثة .

ولقد فاتني أن أذكر لكم في أول المحاضرة أن المدرسة الحديثة معنية بالناذج البارزة الممتازة في كل عصر وجيل في الشرق العربي والغرب الأوربي ، وأنها تحسب من الجديد كل ذي طابع خاص ممتاز في القديم والحديث على السواء فشعراء النهضة العباسية الذين ذكرتهم من أعيان المدرسة الحديثة لا بل إن شاعراً مطبوعاً كأمريء القيس في الجاهلية لا تمنعه هذه المدرسة من غشيان ناديتها ، والجلوس إلى مائدة في الردهة منها ، بينما شعراء معاصرون لنا أو رحلوا إلى العالم الآخر منذ قريب تحرّمهم هذا الشرف ، لأنهم مقلدون أو لأنهم نكراات شائعة ليس لها طابع مختوم ، أو لأن خصوصيتهم لم تبلغ درجة الامتياز .

يقول شوقي بيته المشهور :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا
فلا يزيد على أن يلقي موعظة جاءته بالسمع والمعرفة ، ولم تنبع من طبعه

الخاص أو مزاجه المعروف ، ولست تقول حين تسمعها وأنت تجهل قائلها :
« هذا شوقي . وتلك حكمته . فهي بمزاجه أليق وبطبيعته أشبه » ذلك أن
مزاج شوقي وطبيعته المعروفين لا يوحيان بهذا القول ولا ينضحان نضحا طبيعيا
بهذا الاتجاه .

ويقول المتنبي :

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم
فإذا هي حكمة المتنبي خاصة ، تلقاها من طبعه المغامر وقلبه الطموح
ولم يتلقفها من أفواه الآخرين ، ولم يتعلمها بالدرس والملاحظة والتلقين .
وهذا هو الفرق بين شعراء الشخصية وشعراء الجماهير

والاختلاف على طبيعة الشاعر وعلى وظيفته يؤديان إلى الاختلاف على
« اتجاه الشاعر » فيكثر في شعر المدرسة الحديثة لوان من ألوان الاتجاه الشعري
هما شعر الطبيعة وشعر الحالات النفسية ، فلنفرد لكل منهما كلمة قصيرة هنا
وإن كان كل منهما في حاجة إلى محاضرة خاصة .

شعر الطبيعة : نفس الفنان هي أكثر النفوس خفقا لمجال الطبيعة واتصالا
بأعماقها ومظاهرها ، ولكن الفنانين يختلفون في اتصالهم بهذه الساحرة التي
لعبت بلبهم جميعا ، وتبدت لهم مرة عرائس وجنيات في البحار ، ومرة آلهة
وشياطين في الأرض والسماء ، ومرة أنغاما وأصداء في زفزة الرياح وصدحات
الطيار ، ومرة وسوسة وهمسا في حفيف الغصون والأوراق ، وخزير
الجدائل والغدران ... إلى آخر مفاتن الطبيعة ومجاليها ، وتقلباتها وأعاصيرها .
هم يختلفون في صلتهم بهذه الساحرة التي ما يزال سحرها يجوز على الجميع
ويهجس في الاخلاد والضماير حتى بعد أن تكشف عن وجهها النقاب وبعد أن

عرف الجميع أن ليس هناك جنيات في البحار، ولا آلهة في الرعد والبرق، ولا أرواح في الزفزة والحرير .

هم يختلفون في صلتهم بها، فبعضهم يرى نفسه نفحة من نفحاتها ونسمة من نسيماتها وذرة من كيائها فيذوب فيها ذوبان القطرة في الغدير والنفحة في العبير، بينما البعض الآخر يرى نفسه ندا لهذه الطبيعة كلها وكفنا لزوابعها وأعاصيرها وبرقها ورعدها وبرها وبحرها وزهرها وطيرها، تقارعه ويقارعها فيتفاهمان أو يتخاصمان وهما ندان متكافئان .

وبعضهم يرى فيها الحبيبة الودود والصديقة الحيمة ويقبل عليها إقبال العاشق المحب المفتوح الحس والوجدان لاستجلاء مظاهرها، واستبطان خرافتها، بينما البعض الآخر يقف منها وقفة المتوجس المدعور، تفزعه غضباتها وتريبه سكناها كأنه منها مع ساحر مرهوب جبار !

وفيه من يتصل بهذه الطبيعة اتصال اللحم والدم، فهو دفعة من دفعاتها وقوة من قواتها وتعبير من تعبيراتها، لا يرى لنفسه كيانا مستقلا عنها . وفيهم من يقف منها موقف الدراس المتأمل المستجلي لجمالها وقبحها، المحلل لخيرها وشرها .

ويطول بنا القول حين نعدد مظاهر الأحساس بالطبيعة بين الفنانين . ولكتنا نكتفي بأن نسأل: هنا مانصيب الشعر العربي القديم — حتى الممتاز منه — من الالتفات إلى مجالي الطبيعة ؟

والجواب على هذا ليس في صف هذا الشعر العربي، فنحن حين نستثنى — ابن الرومي — وكان بدعا في الشعر العربي كله في هذه الخلقة، لانجد شاعرا آخر وهب الطبيعة شطرا كبيرا من ديوانه أو أحس بها إحساسا عميقا يتعدى الظواهر والأشكال ويتعمق إلى ما وراء الأصوات والروائح والألوان . إلى قلب الطبيعة النابض وكيانها الحي وخفقاتها الأصلية . فديوان المتنبي كله تكاد لا تجد

فيه إلا وصف شعب بوان ، وديوان البحترى كله تكاد لا نجد فيه إلا وصف
النيروز - والبحترى هو الشاعر لجودة الوصف كما يقول نقاد العرب -
ثم تعثر على فلتات في شعر الطبيعة لابن خفاجة الأندلسى وابن حمديس
ولكنه ليس سليما من التزويق والتزييف في كل حال . وبعد هذا لا تقع العين
إلا على الزوارق ذات الحمولة العنبرية وإلا على أعلام الياقوت المنشورة على
رياح الزبرجد إلى آخر هذا العبث بالتشبيهات والالوان

فإذا نحن تطلعنا إلى شعر النهضة الحديثة وجدنا الطبائع المختلفة والانماط
المتعددة في شعر الطبيعة. وذلك دليل الغنى والحياة في طبائع شعراء الجيل .
ولن يتسع الوقت لعرض النماذج الكثيرة ، فأنا أكتفى بقطعة العقاد في وصف
البحر وقطعة العوضى الوكيل التي سمعتموها في وصف الربيع ، وبقطعة
أحمد مخيمر التي سمعتموها في وصف النور ، وبقطعة محمد علي التي سمعتموها
عن الضياء.

شعر الحالات النفسية : أما شعر الحالات النفسية فهو قلة قليلة في الشعر
العربي كله - حتى عند ذوى الطبائع الممتازة - ولا تجده هناك إلا في شكوى
الزمان ، وإلا في بعض مقطوعات الرثاء . وهو على قلته يكاد يسير على نسق
واحد ويصب في قوالب متشابهة محفوظة .

وإذا استثنينا رثاء ابن الرومي لأولاده - وهو رثاء صادق فريد -
ورثاء المتنبي لجده وفيه خصائص المتنبي القوية ، وقصيدة المعري الخالدة في
الرثاء الإنساني كله ، وقليلًا يقرب من هذا الوادى ؛ واستثنينا كذلك بعض
أبيات متناثرة للمتنبي في وصف بعض حالاته النفسية في نكباته كقوله :
وحيد من الخملان في كل بلدة إذا أعوز المطلوب قل المساعد
وقوله :

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبى موجه القلب با كيا

وبعض أبيات لآبي فراس الحمداني في أسره، وخفنة من الأبيات لسواه من شعراء العرب. لو استثنينا هذه الأبيات المتناثرة هنا وهناك التي نستطيع أن نسميها شعرا نفسيا عاليا، فإننا لانجد هذا اللون من الشعر في هذا الاتاج الضخم على مر الأجيال. وهو في مجموعه لا يبلغ مقدار نظيره في ديوان شاعر واحد من شعراء الجيل الحديث.

والحكمة في هذا واضحة. فقد كان الشعر العربي شعر القبيلة أولا، فلم تكن للشاعر هموم وأشواق خاصة يعنى بالتعبير عنها؛ فلما تخلص من قيد القبيلة وبدأ يتبلور خلقة مستقلة قصود بالشعرا أبواب الخلفاء والأمراء يمدحهم أو يهجوهم أو يرثيهم ويعزيهم. ولم يجد في هذا الغمار فرصة يلتفت فيها إلى نفسه، وينغمس في ذاته ويعبر عن شعوره إلا قليلا.

أما الشعراء الذين خلصوا لأنفسهم فقد كثر في شعرهم الالتفات إليها كالشريف الرضي والمعري، وكشعراء الغزل أمثال عمر بن أبي ربيعة والعباس بن الأحنف، ولكن هؤلاء لم يجيدوا إلا في القليل، ولم يبلغوا أن يخصصوا قصائد كاملة لتصوير نفوسهم أو النفس الإنسانية على وجه العموم ولقد ظل الشعر العربي شعرا غنائيا لم يسلك سبيل القصة ولا الرواية، فلم بنفسح له الأفق لتصوير النفوس الإنسانية وهي تلعب دورها في الحياة كما انفسح للغربيين.

أما الشعر الحديث، فهو وإن لم يتناول القصة أو الرواية إلا قليلا، إلا أنه عني بوصف الحالات النفسية الكثيرة المتعددة الأنماط لقائله. وكان هذا أمرا طبيعيا. ذلك أن الشعر تخلص من الشيوخ والانغمار في القبيلة، ثم تخلص من الفناء في أصحاب السلطان، ثم تخلص من التقليد والقوالب المحفوظة، فخلّى بين الشاعر ونفسه، يناجيها وتناجيها، ويرى الكون كله من خلالها، وأصبح الشعر «صورة الكون في نفس فنان، وانعكاس الحياة في حس إنسان».

وساعدت بحوث التحليل النفسى وتشرح الوجدانات والعواطف فى القصص والروايات على الانتباه لما يجرى فى النفس من أحاسيس .

فكل دعوة اليوم للشعراء أن يهتفوا بالدعوات الاجتماعية والنعرات القومية ، أو ينغمروا فى أحداث العصر وواقعات الأيام ، هى دعوة للنكسة إلى شعراء القبيلة . وكل فناء اليوم فى أصحاب السلطان وتوجه إليهم بالشعر إنما هو نكسة كذلك إلى شعراء المدح وإذلال لكبرياء الفن . ودليل على زيف فى طبيعة هؤلاء الذين يلبسون مسوح الشعراء !

والأمثلة لشعر الحالات النفسية هى كل دواوين شعراء النهضة الحديثة ، وما أنا بمستطيع نقلها إليكم وتحليلها ، ولكنى أختار قطعة واحدة لشاب صغير لادىوان له :

يقول « محمد قطب » فى قصيدة سماها « غريب »

غريب أنا فى ذلك الكون كله	على سعة فى الكون توحى بإيناس
غريب بنفسى عن نفوس كثيرة	غريب بفكرى عن دنى ذلك الناس
وأحسب أنى تائه فى غمارهم	كما ضل ومض فى غمار الدجى القاسى
وما نلتقى فى خفقة أو وشيجة	ولا فكرة علميا ولا طيف وسواس
وما بيننا من رابط غير أننا	نجوب معا دنيا من الحلك الكاسى
ترى أيننا أصنى ضميرا وعنصرا	وأكثر صدقا أو سلامة إحساس
لأحسب فى دنياهمو كل ضلة	وأحسبها دنيا شرور وأرجاس

لقد كنت قبل اليوم هيمان فى الذرا	أحلق نشوانا إلى كل مرتاد
يفيض بنفسى الفن بشرا وغبطة	ويهمس فى أذنى كالطائر الشادى
ويخلق فى نفسى مئى عبقرية	ويلهمنى الاحساس كالكوكب الهادى
ويمنحنى صفو الحياة وذخرها	وأجمل مايهفو له الناهل الصادى

فأشبع حبي للحياة نقية ويسمو إلى خلد السماء فوادى
وأرقب هذا الناس في دينياتهم كما أرقب الأنعام تنساق في الوادى
فياخذنى رفق بهم في ضلالهم يهيمون في دنيا الظلام بلا حادى

ولكننى أقفرت يوما من المنى وجمت إلى الظلما غير مزود
فلفتنى الظلما من كل جانب وبثت لى الأشواك فى كل مقصد
وما أرتوى من مورد. أى مورد وما ألتقى إلا بدجوان أجرد
وطال هيامى فى الظلام بلا هدى فأجهدت من سير عمل مشرد
وأخلد قلبى للسكون والكرى بليدا من الإحساس أى تبلى
فلما أفقت اليوم من ذلك الكرى تلمست حولى الكون علمتى أهتدى
فألفيتنى فيه غريبا مشردا أهوم فى واد من التيه سرمد
وصاحب هذه القطعة شاب فى الواحدة والعشرين ، فلم تكن لديه فسحة
من العمر ليقطع فيها هذه المراحل النفسية التى يصورها فى قصيدته ، لولا أن
النهضة الحديثة تنضج شعراءها قبل الأوان .

وكان نصيب شعر الغزل وفيرا من شعر الحالات النفسية ، لأن الحب كان
ومازال من أعمق العواطف البشرية ، التى تهز النفس هزا وترجها رجاء ، وتخلق
منها نفوسا كثيرة كل نفس للحظة التى هى فيها وللحالة التى تصادفها .

وبعد أن كان هذا اللون من الشعر يصاغ فى قوالب محفوظة أو كالمحفوطة
فى الشعر العربى ، أصبح أنماطا شتى فى دواوين شعراء النهضة الحديثة ، بل
أنماطا شتى فى كل ديوان من هذه الدواوين ؛ ولم يعد الغزل تعبيرا ساذجا عن
الشوق واللهفة أو الألم والتوجع ، أو المتعة والارتواء . ولكنه عاد تعبيرا
عن مطامح الروح وعن سباحات الشعور ، واتصل الحب فى كثير من النفوس
بمذاهب فلسفية وغايات أبعد من الرى والظلم ، فإذا له علاقة بالإغراض

الكبرى للكون والحياة ، وإذا هو حافز من الحوافز التي توجه الدنيا إلى آفاق جديدة تتجاوز فيها الأفراد إلى الآباد .

وقبل كل شيء تعددت القوالب وتنوعت الأنماط ، وذهب كل شاعر مذهبا يوافق طبيعته ويتغذى بثقافته .

ويصعب على هنا أن أوقع على الأوتار المختلفة التي وقع عليها شعراء النهضة الحديثة في الغزل ، بل يصعب على أن أوقع على أوتار شاعر واحد جميع النغمات التي وقعها . ولقد استغرقت نحو أربعين صفحة من صفحات الرسالة منذ ثلاثة أعوام لأضرب أمثالا متنوعة من « غزل العقاد » لا يغنى فيها مثل عن مثل ، بينما أنا مستطيع أن أستغنى بمثل واحد لأشعر شعراء الغزل العرب عن بقية ديوانه ، لأن البقية صورة لهذا المثل .

ولكنني سأستعرض معكم بعض مقطوعات الغزل الحديث على سبيل المثال لأعلى سبيل الاستقراء . يقول العقاد في أيلة موعده سماها « عروس الليالي » في ديوانه « هدية الكروان » .

عروس الليالي تهبط اليوم من عل	وتدنو على طول النوى والتدلل
سرت بين شرق من ضياء ومغرب	وبين جنوب من ضياء وشمال
كأنى أراها من دهور بعيدة	لطول اشتياقي وجهها وتأمل
فيأيلة القدر المؤمل أقبل	تعالى أقبل منك كل مقبل
خذى لك جثمانا يضمك عاشق	قليل لديه صورة المتخيل
وتيهى بوجه من صباحك مشرق	وميلى بفرع من مسائك مسبل
سأبديك شعرا يملأ السمع شدوه	إذا ضنت الدنيا بحجم ممثّل

ويقول محمد علي (شاعرنا المجهول) في قطعة سماها « بدء الحب » في ديوانه « تيه الحياة » .

خفوق هنا في الجو والماء والسنا وفي صفحة الدنيا وفي الزهر والعشب

كأنى أرى الدنيا لأول مرة لكثرة ما يبذى الغرام وما يصي
 لقد بان لي منها خفايا عجيبة وكما لمعت حيناً فلم يدرها قلبي
 وقد كشفت عنه عصا سحرية فبان بجالي النور من خلل الحجب
 كأن جميع الكون حين نظرتها فتواد من الأهواء يخفق في قلبي
 وفي القلب من هدأة بعد ثورة كما يهدأ الصوفي في مشهد الغيب
 نعم ها هنا قلب تفتح بابه لأول ما يذكى من قبس الحب
 ويقول أبو القاسم الشابي (ذلك الشعاع الذي تراقص فترة من الزمن ثم
 خبا إلى الأبد) في قصيدة سماها « صلوات في هيكल الحب » .

عذبة أنت كالطفولة كالاحلام كاللحن كالصباح الجديد
 كالسما الضحوك كالليلة القمر كالورد كابتسام الوليد
 يالها من وداعة وجمال وشباب منعم أملود
 يالها من طهارة تبعث التقديس في مهجة الشقى العنيد
 يالها رقة تكاد يرف الور د منها في الصخرة الجلود

أنت .. ما أنت ؟ أنت رسم جميل عبقرى من فن هذا الوجود
 فيك ما فيه من غموض وعمق وجمال مقدس معبود
 أنت . ما أنت أنت فجر من السحر تجلى لقلبي المعمود
 فأراه الحياة في مونق الحسن وجلى له خفايا الخلود
 أنت روح الربيع تختال في الدنيا فتتهز رائعات الورد
 وتهب الحياة سكرى من العطر ويشدو الوجود بالتغريد
 كلما أبصرتك عيناي تمشين بخطو موقع كالنشد
 خفق القلب للحياة ورف الزهر في حقل عمرى المجرود
 وانتشت روحى الكثيبة بالحب وغنت كالبلبل الغريد

أنت تخبين في فؤادي ما قد مات في أمسي السعيد الفقيد
وتشيدين في خرائب روعي ما تلاشي في عهدي المجدود
من طموح إلى الجمال إلى الفن إلى ذلك الفضاء البعيد
وتبثين رقة الشوق والأحلام والشجو والهوى في نشيدي
بعد أن عانقت كآبة أيامي فؤادي وألجمت تغريدي
أنت أنشودة الأناشيد غناك إله الغناء رب القصيد

فيك شب الشباب وشحه السحر وشدو الهوى وعطر الورود
وتراي الجمال يرقص رقصا قدسيا على أغاني الوجود
وتهادت في أفق روحك أوزا ن الأغاني ورقة التغريد
قمايلت في الحياة كلحن عبقرى الخيال حلو النشيد
خطوات سكرانة بالأناشيد وصوت كرجع ناي بعيد
وقوام يكاد ينطق بالألحان في كل وقفة وقعود
كل شيء موقع فيك حتى لفظة الجيد واهتزاز النهود
إلى آخر هذه القصيدة التي أتركها مرغما لضيق الوقت وطول الحديث ..
هذه مقتطفات سريعة من لون واحد من ألوان الغزل ، هو الخفقة الأولى
للحب . أما حين يخطو خطواته ويتعمق في النفس فيثير كوامنها ويصلها بفلسفات
وتأملات شتى ؛ وحين يتعكر صفوه فيثير الحرق والآلام ويفجر الصرخات
والثورات ؛ وحين تخبر شعلته وتسكن فورته فيغشى النفس بدخان الآسى
وعقاييل الذكرى ... وحين وحين إلى آخر حالات الحب وأشكاله ، فعليكم
أن تقرءوا دواوين الشعر الجديدة لتطلعوا منها على الكثير .

هذا وقد اخترت أن أحدثكم عن بعض سمات الشعر الحديث لأعن مذهبيه لأن هذه السمات تتحقق في الشاعر مهما يكن مذهبيه في الشعر : غنائيا أم رمزيا أم واقعيا أم قصصيا أم تمثيليا .

ولم أستطع أن أحدثكم مع ذلك عن كل سمات الشعر الحديث وأخصها تأثيره بالفلسفات والمذاهب العلمية الكبرى وتأثيره فيها . وسمة الصدق والقصد في كل فنونه . وكذلك لم أحدثكم عن مذاهب الشعر التي أشرت إليها . لأن الزمن المخصص لهذه المحاضرة - وقد تجاوزته - لا يتسع للحديث في هذا كله . ولعلني مستطيع في محاضرتين أخريين أن أحدثكم عما فاتني أن أحدثكم الليلة فيه . إن لم أكن أملتكم بهذه المحاضرة الطويلة !

سيد قطب

حلوان